

٥ - وَالْهَيْةُ امْرَأَةُ لُوطٍ ﷺ

إن من أبسط قواعد الحياة بين الزوجين أن تكون المرأة مطيعة لزوجها، معينة له على أعدائه، أمينة على أسراره، ولكن قضت مشيئة الله تعالى أن تحرم امرأة «لوط» ﷺ من كل ذلك، فأية امرأة كانت تلك التي ابتلى الله بها نبيه «لوطاً» ﷺ؟

قال تعالى في كتابه العزيز ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [التحريم، الآية: ١٠].

وقد ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» عن السهيلي أنه قال: واسم امرأة لوط «والهة»^(١). ولما أمر «إبراهيم» ﷺ بالدعوة إلى عبادة الله وحده، كان ابن أخيه «لوط بن هاران» أول من آمن به، واتبع هداه، وقد أشار التنزيل العزيز إلى ذلك حيث قال: ﴿فَقَامَنْ لَمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت، الآية: ٢٦]، ولكن امرأته «والهة» أبت متابته، وأعرضت عن دخول واحة الإيمان، وأصرت على الكفر والعصيان، وسلكت سبيل الشيطان، فجمعت بين عداوتين قبيحتين، أولاهما: عداوتها لله، وثانيهما: عداوتها لزوجها نبي الله، وكفى بذلك مؤهلاً لها لتدخل النار، مع الداخلين من المستكبرين والفجار والكافرين.

وذكر القرآن الكريم امرأة «لوط» ﷺ في ثمانية مواضع، شملت سورة الأعراف، وهود، والحجر، والشعراء، والنحل، والعنكبوت، والصفافات، والتحريم.

(١) البداية والنهاية (١/٢٠١).

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَفَعَكُمْ بِهَا مِنْ آلِهِ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَأَتْؤُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَجْبَنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذِيبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف، الآيات: ٨٠ - ٨٤] .

وجاء في تفسير الألوسي «روح المعاني» لهذه الآيات: (ولوطاً) هو ابن هاران بن تارخ، وابن إسحاق ذكر بدل تارخ «آزر»، وأكثر النسابين على أنه ﷺ ابن أخي «إبراهيم» ﷺ، ورواه في المستدرک عن ابن عباس ﷺ .

وأخرج ابن عساکر عن سليمان بن صرد: أن أبا «لوط» ﷺ عم «إبراهيم» ﷺ، وقيل: إن «لوطاً» كان ابن خالة «إبراهيم»، وكانت «سارة» زوجته أخت «لوط»، وكان في أرض بابل من العراق «إبراهيم» فهاجر إلى الشام، ونزل فلسطين، وأنزل «لوطاً» الأردن، وهو كرة - كورة - بالشام فأرسله الله تعالى إلى أهل «سُدوم» وهي بلدة بحمص .

وأخرج إسحاق بن بشر، وابن عساکر، عن ابن عباس ﷺ، قال: أرسل «لوط» إلى المؤتفكات، وكانت قرى «لوط» أربع مدائن سُدوم، وأمورا، وعامورا وصبوير، وكان في كل قرية مائة ألف مقاتل، وكان أعظم مدائنهم «سُدوم»، وكان «لوط» يكثرها وهي من بلاد الشام ومن فلسطين مسيرة يوم وليلة .

وقد أخرج البيهقي وغيره، عن عمرو بن دينار، قال: ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم «لوط»، والذي حملهم على ذلك - كما أخرج ابن عساکر وغيره، عن ابن عباس ﷺ - أنهم كانت لهم ثمار في منازلهم وحوائلهم ثمار خارجة على ظهر الطريق، وأنهم أصابهم قحط وقلة من الثمار، فقال بعضهم لبعض: إنكم إن منعت ثماركم هذه الظاهرة من أبناء السبيل كان لكم فيها عيش، قالوا: بأي شيء نمنعها؟ قالوا: اجعلوا ستكم أن تكحوا من وجدتم في بلادكم غريباً، وتغرموه أربعة دراهم، فإن الناس لا يظهرون ببلادكم إذا فعلتم ذلك ففعلوه واستحكم فيهم .

وفي بعض الطرق أن إبليس عليه اللعنة، جاءهم عند ذكروهم ما ذكروا في

هيئة صبي أجمل صبي رآه الناس فدعاهم إلى نفسه فكحوه، ثم جرؤوا على ذلك.

وجاء في رواية ابن أبي الدنيا، عن طاوس: أن قوم «لوط» إنما أتوا أولاً النساء في أدبارهن، ثم أتوا الرجال، وفي قوله: ﴿مِن ذَوَاتِ النِّسَاءِ﴾ دون من الناس مبالغة لا تخفى.

وإثر نصح «لوط» ﷺ لقومه بنبذ هذه الفاحشة المقيتة، اقترح الصكبرون، وقالوا للمباشرين ذلك العمل الشنيع: أخرجوهم من قريبتكم ومقصودهم السخرية بلوط ﷺ، ومن معه.

ولما أبوا الاستجابة إلى دعوة «لوط» ﷺ قضت المشيئة بهلاكهم، وأرسل الله مطراً عجيبياً لم يكن من الماء، بل كان من حجارة من سجيل، لقوله سبحانه في آية أخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر، الآية: ٧٤]، فنجي «لوط» ﷺ وأهله، أي من اختص به واتبعه من المؤمنين سواء أكانوا من ذوي قرابته ﷺ أم لا؟، وقيل: ابتناه: «ريثاً» و«يغوثناً».

واستثنيت امرأته «والهة» من النجاة، وفي رواية: أنه ﷺ أخرجها مع أهله، ونهاهم عن الالتفات، فالتفتت هي، فأصابها حجر فهلكت، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنقَبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ٨٤] أي مآل أولئك الكافرين المقترفين لتلك الفعلة الشنعاء، وذكر «الآلوسي» ﷺ: وقد مكث «لوط» ﷺ على ما في بعض الآثار ثلاثين سنة يدعوهم إلى ما فيه صلاحهم، فلم يجيبوه، وكان «إبراهيم» ﷺ يركب حماره، فيأتيهم وينصحهم فيأبون أن يقبلوا، فكان يأتي بعد أن أيس منهم فينظر إلى «سدوم»، ويقول: «سدوم»! أي يوم لك من الله تعالى سدوم! حتى بلغ الكتاب أجله، فكان ما قص الله تعالى على نبيه ﷺ.

وتابع «الآلوسي» القول: ثم إن «لوطاً» ﷺ كما أخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر، عن الزهري، لما عذّب قومه لحق بإبراهيم ﷺ فلم يزل معه حتى قبضه الله تعالى إليه، وفي هذه الآيات دليل على أن اللواط من أعظم الفواحش.

(١) انظر تفسير (روح المعاني) (١٦٨/٨ - ١٧١).

وجاء في خبر أخرجه البيهقي في «الشُّعْب»، عن أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الحاكم عن النبي ﷺ قال: «لعن الله تعالى سبعة من خلقه فوق سبع سماوات، فردّد لعنة على واحد منها ثلاثاً، ولعن بعد كل واحد لعنة لعنة فقال: ملعون ملعون من عمِلَ قوم لوط» الحديث.

وجاء أيضاً: أربعة يصحون في غضب الله تعالى، ويمسّون في سخط الله تعالى، وعدّ منهم من يأتي الرجل.

وأخرج ابن أبي الدنيا، وغيره، عن مجاهد رضي الله عنه أن الذي يعمل ذلك العمل لو اغتسل بكل قطرة من السماء، وكل قطرة من الأرض لم يزل نجساً، أي أن الماء لا يزيل عنه ذلك الإثم العظيم الذي بَعَدَه عن ربه، والمقصود تهويل تلك الفاحشة. وألحق بها بعضهم «السحاق»، وبدأ أيضاً في قوم «لوط» رضي الله عنه، فكانت المرأة تأتي المرأة، فمن حذيفة رضي الله عنه: إنما حقّ القول على قوم «لوط» رضي الله عنه حين استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال. وعن أبي حمزة رضي الله عنه، قلت لمحمد بن علي: عذب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم؟ فقال: الله تعالى أعدل من ذلك، استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، وآخرون إتيان المرأة في عجزيتها.

واستدل بما أخرج غير واحد، عن علي كرم الله وجهه: أنه قال على المنبر: سلوني، فقال ابن الكواء: تؤتى النساء في أعجازهن؟ فقال كرم الله تعالى وجهه: سَفُلْتُ سَفُلَ اللهُ تَعَالَى بِكَ، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف، الآية: ٨٠].

ولا يخفى أن ذلك لا يتم إلا بطريق القياس، وإلا فالفاحشة في الآية مبينة بما علمت. نعم جاء في آثار كثيرة ما يدل على حرمة إتيان الزوجة في عجزيتها، والمسألة خلافية، والمعتمد فيها الحرمة.

ولا فرق في «اللواط» بين أن تكون بمملوك أو تكون بغيره.

واختلفوا في كفر مستحل وطء الحائض ووطء الدبر، وفي «التتارخانية» نقلاً عن «السراجية»: اللواط بمملوكه أو مملوكته أو امرأته حرام، إلا أنه لو استحلها لا يكفر، وهذا بخلاف اللواط بأجنبي فإنه يكفر مستحلها قولاً واحداً.

وما ذكر مما يعلم ولا يعلم، كما في «الشرنبلالية» لثلا يتجرأ الفسقة عليه بظنهم حله، وفي سورة «هود» قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَقَضِيحًا دَرَجًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوِرُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَعِيفِ الْإِنْسِ يَنْكُرُ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأْتِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَا إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ ﴿٨٣﴾

[هود، الآيات: ٧٧ - ٨٣].

قال «الآلوسي» في تفسير هذه الآيات: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: انطلقوا من عند «إبراهيم» عليه السلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه ^(١) في صورة غلمان حسان الوجوه فلذلك سيئ بهم أي أحدث له عليه السلام مجيئهم المساء لظنه أنهم أناس، فخاف أن يقصدهم قومه، وعجز عن مدافعتهم، وقيل: كان بين القريتين ثمانية أميال فأتوها عشاء، وقيل: نصف النهار، ووجدوا «لوطاً» في حرث له.

وقيل: وجدوا بنتاً له تستقي ماء من نهر «سدوم»، وهي أكبر محل للقوم، فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيئاتهم فخافت عليهم من قوم أبيها، فقالت لهم: مكانكم، وذهبت إلى أبيها، فأخبرته، فخرج إليهم، فقالوا: إنا نريد أن تضيفنا الليلة، فقال: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال: أشهد بالله تعالى أنهم شر قوم في الأرض، وقد كان الله تعالى قال للملائكة: لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم «لوط» أربع شهادات.

فلما قال هذه، قال «جبريل» عليه السلام: هذه واحدة، وتكرر القول منهم حتى كرر «لوط» الشهادة، فتمت الأربع، ثم دخل المدينة، فدخلوا معه منزله ^(٢)، وبينما كان «لوط» عليه السلام في بيته مع أضيافه، أقبل قومه إليه مسرعين يريدون فعل

(١) روح المعاني (٨/ ١٧١ - ١٧٣).

(٢) روح المعاني (١٢/ ١٠٤ - ١٠٥).

الفاحشة بهم، فعرض عليهم «لوط» بناته يتزوجونهن فهن أحل لهم وأطهر، وكانوا قد خطبوهن من قبل إلا أنه ردَّهم لما يعلم من خبيثهم وعدم كفاءتهم لبناته الطاهرات، ولعدم جواز زواج المؤمنات من الكفار، فإن ذلك كان جائزاً حتى منعه رسول الله ﷺ بعد أسر صهره «أبي العاص بن الربيع» في غزوة بدر، وتخليه سبيله على شرط أن يسرح ابنته «زينب» ويرسلها إليه في المدينة، ثم أثنى عليه رسول الله ﷺ لأنه أوفى بما وعد، ولما أسلم ردَّها عليه رسول الله ﷺ بالنكاح الأول كما جاء في الخبر. وقالوا له: لا رغبة لنا في بناتك لأنك كنت ترى أن لا حق لنا بهن، وإنك لتعلم أن رغبتنا في الذكور، فقال لهم: وددت لو أن قوتي تمكني من دفعكم بنفسي عنهم، أو ألجأ إلى ركن شديد أتمنع به عنكم وانتصر به عليكم.

قال «الآلوسي» في تفسير الآية: وقد عدَّ رسول الله ﷺ هذا القول منه ﷺ بادرة واستغربه، فقد أخرج البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «رحم الله تعالى أخي لوطاً، كان يأوي إلى ركن شديد» يعني عليه الصلاة والسلام به الله تعالى، فإنه لا ركن أشد منه ﷺ.

إذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرزايا من وجوه الفوائد وجاء أنه ﷺ لهذه الكلمة، لم يبعث بعد «لوط» نبياً، إلا في منعة من عشيرته، وفي البحر أنه يجوز - على رأي الكوفيين - أن تكون (أو) بمعنى (بل) ويكون ﷺ قد أضرب عن الجملة السابقة، وقال: بل أوي في حالي معكم إلى ركن شديد وكنتي به عن جناب الله تعالى، ولا يخفى أنه يأبى الحمل على هذه الكناية تصريح الأخبار الصحيحة بما يخالفها، وقرأ «شيبه» و«أبو جعفر» (أوى) بالنصب على إضمار أن بعد (أو) فيقدر بالمصدر عطفاً على (قوة)، ونظير ذلك قوله:

وَلَوْ لَا رِجَالٌ مِّن رِّزَامٍ أَعِزَّةٌ وَأَلُّ سُبَيْعٍ أَوْ أَسْوَأَكَ عَلَّقَمَا

أي: لو أن لي بكم قوة أو أويماً، روي أنه ﷺ أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ﷺ ما على «لوط» من الكرب ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾

[مُرد، الآية: ٨١] بضر ولا مكروه، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب، فدخلوا، فاستأذن «جبريل» ﷺ رب العزة في عقوبتهم، فأذن له، فلما دنوا طمس أعينهم، فانطلقوا عمياً يركب بعضهم بعضاً، وهم يقولون: النجاء، النجاء، فإن في بيت «لوط» قوماً سحرة.

وفي رواية: أنه ﷺ أغلق الباب على ضيفه فجاؤوا فكسروا الباب، فطمس «جبريل» أعينهم، فقالوا: يا لوط! جئتنا بسحرة، وتوعده، فأوجس في نفسه خيفة، قال: يذهب هؤلاء ويذرونني، فعندها قال «جبريل» ﷺ: (لا تخف إنا رسل ربك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك). روي أنه أخرجها معهم وأمر ألا يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت هدة العذاب التفتت، وقالت: يا قوماه! فأدركها حجر فقتلها^(١).

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [مُرد، الآية: ٨٢] أي وقت عذابنا أو الأمر به، فالأمر على الأول واحد الأمور، وعلى الثاني واحد الأمور ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِقَهَا﴾ [مُرد، الآية: ٨٢] وهي مدائن قوم «لوط» وهي: المؤتفكات، وهي خمس مدائن: ميعة، وصعرة، وعصره، ودوما، وسدوم.

وقيل: سبع أعظمها سدوم، وهي القرية التي كان فيها «لوط» ﷺ، وكان فيها على ما روي عن قتادة أربعة آلاف ألف إنسان أو ما شاء الله تعالى من ذلك.

وقيل: إن هذا العدد إنما كان في المدائن كلها.

وقيل: إن ما كان في المدائن أكثر من ذلك بكثير، والله تعالى أعلم.

روي أن «لوطاً» ﷺ سرى بمن معه قبل الفجر، وطوى الله تعالى له الأرض حتى وصل إلى «إبراهيم» ﷺ، ثم إن «جبريل» ﷺ اقتلع المدائن بيده، وفي رواية: أدخل جناحه تحت المدائن فرفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها، وما أعظم حكمة الله تعالى في هذا القلب الذي هو أشبه شيء بما كانوا عليه من إتيان الإعجاز، والإعراض عما تقتضيه الطباع

(١) انظر روح المعاني (١٢/١٠٨ - ١١٠).

السليمة، ولا ينبغي أن يجعل الكلام كناية عن إنزال أمر عظيم فيها كما يقول القائل: اليوم قلبت الدنيا على فلان، لما فيه من العدول عن الظاهر، والانحراف عما نطق به الآثار من غير داع سوى استبعاد مثل ذلك، وما ذلك ببعيد، وإسناد الجعل إلى ضميره تعالى باعتبار أنه المسبب فهو إسناد مجازي، باعتبار اللغة، وإن كان سبحانه هو الفاعل الحقيقي، والنكته في ذلك تعظيم الأمر وتهويله، فإن ما يتولاه العظيم من الأمور فهو عظيم ويقوي ذلك ضمير العظمة أيضاً. وأمطر الله تعالى حجارة من طين متحجر معلمة.

قال ابن جريج: ليست من حجارة الأرض.

قال ابن عباس والحسن: معلمة ببياض وحمرة، وفي رواية أخرى لابن عباس: أنه كان بعضها أسود فيه نقطة بيضاء، وبعضها أبيض فيه نقطة سوداء.

وعن الربيع أنها كانت معلمة باسم من يرمى بها.

وكان بعضها كما قيل: مثل رؤوس الإبل، وبعضها مثل مباركها، وبعضها مثل قبضة الرجل، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود، الآية: ٨٣] لم تكن الحجارة لخطئهم.

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْتُهُمْ عَن ضَيْفِ إِزْرِهِمْ ﴿٥١﴾ إِذ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجَلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نَزَلْنَا إِنَّا نَبِّئُكَ بِظُلْمٍ عَلَيْهِ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ نُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بِشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْفٰئِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَفْسُقُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لَحْنٌ الْعَدِيَّةِ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكْرَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ يَفْطِحْ لَكَ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَئُكَ مِنْهُمُ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُوا ﴿٦٨﴾ وَانْفِرُوا لِلَّهِ وَلَا تَحْزَنُوا ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَيْتُمْ نَهْلَكَ عَنِ الْعٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَّاكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِم بِعَمَلِهِمْ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا

عَلَيْهَا سَافَلَهَا وَأَمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٧﴾
وَأَنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقْبِرٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٧﴾ [الحجر، الآيات: ٧٦-٧٧].

ما أروع هذا البيان! وما أعظم بلاغة القرآن! لقد وقف أرباب الفصاحة حياله عاجزين، وانقلب الذين حاولوا محاكاته وتقليده خاسئين، وأنى للمخلوق أن يبلغ شأو كلام أحسن الخالقين؟ وقد أسعفني الخاطر بهذه الآيات^(١):

نَزَّهْتُ طَرْفِي فِي أَحَبِّ مَعَانٍ	وَأَخَذْتُ أَبْحَثُ عَنْ أَجَلِّ بَيَانٍ
وَسَأَلْتُ فَرَسَانَ الْبَيَانِ فِجَاءِنِي	عَنْهُمْ فَرَائِدُ قَدْ خَلَبْنَ جَنَانِي
لَكِن عَيْنِي لَمْ تَقْرَبْ بِمَا رَأَتْ	وَالأُذُنُ لَمْ تَنْعَمْ بِالْأَطْمِنَانِ
حَتَّى وَقَفْتُ أَمَامَ أَكْمَلِ مُنْزَلٍ	وَتَلَوْتُ بَعْضَ رَوَائِعِ الْقُرْآنِ
وَالْحَقُّ أَنِّي لَمْ أَجِدْ كِكَلَامِهِ	مَبْنَى وَلَمْ أَرْ مِثْلَهُ كَمَعَانِ
مَهْمَا ارْتَقَى أَهْلُ الْبَيَانِ وَأَيَنْعَتِ	أَفْكَارَ مَا أَفْضَى بِهِ الثَّقَلَانِ
نُورَ مَبِينٍ جَاءَ مِنْ تَفْضُلٍ	عَمَّ الْأَنَامَ بِأَفْضَلِ الْإِحْوَانِ
وَأَفَاضَ خَيْرًا مِّذْ أَهْلٍ بِشِيرِهِ	بِلِسَانِهِ الْعَرَبِيَّ خَيْرَ لِسَانِ
وَلَقَدْ أَتَى حِينَ عَلَيْهِمْ قَبْلَهُ	كَانَ الْحَلِيمَ يَهِيمُ كَالْحَيْرَانِ
حَتَّى إِذَا مَسَّ الْقُلُوبَ ضِيَآؤُهُ	بَاتَتْ عَيْونُهُمْ مَعَ الْأَذَانِ
أَسْرَى هِدَايَتِهِ الَّتِي كَشَفَتْ لَهُمْ	فَضْلَ (الْكَرِيمِ) عَلَى بَنِي الْإِنْسَانِ

إنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، يهدي إلى الرشد فأمننا به، والحمد لله الذي أنزله على أشرف خلقه «محمد» ﷺ.

وأخرج ابن جرير الطبري في تاريخه: حدثنا المثنى، قال: أخبرنا إسحاق، قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، قال: حدثني عبد الصمد أنه سمع وهب بن منبه يقول: كان أهل «سُدُوم» الذين فيهم «لوط» قومَ سَوء، قد استغنوا عن النساء بالرجال، فلما رأى الله ذلك منهم بعث الملائكة ليعذبوهم، فأتوا «إبراهيم» فكان أمره وأمرهم ما ذكره الله تعالى في كتابه، فلما بشرُوا «سارة» بالولد قاموا وقام

(١) الآيات من قصيدة للشاعر محمد راجي كناس بعنوان: (مع النور المبين).

معهم «إبراهيم» يمشي، فقال: أخبروني لِمَ بعثتم وما خطبكم؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم «سَدُوم» لندمّرها فإنهم قوم سَوء، قد استغنوا بالرجال عن النساء.

قال «إبراهيم»: أرايتم إن كان فيهم خمسون رجلاً صالحاً؟ قالوا: إذا لا نعذبهم، فلم يزل ينقص حتى قال أهل البيت، قالوا: فإن كان فيهم بيتٌ صالح، قال: فلو ط وأهل بيته، قالوا: إن امرأته هوأها معهم.

فلما يئس «إبراهيم» انصرف ومضوا إلى أهل «سَدُوم» فدخلوا على «لوط»، فلما رأته امرأته أعجبا حنهم وجمالهم، فأرسلت إلى أهل القرية أنه قد نزل بنا قوم لم نر قوماً قط أحسن منهم ولا أجمل، فتسامعوا بذلك، فعشوا دار «لوط» من كل ناحية، وتسوَّروا عليهم الجدران، فلقبهم «لوط» فقال: يا قوم! لا تفضحون في ضيفي، وأنا أزوجهم بناتي فهنَّ أطهر لكم، فقالوا: لو كنا نريد بناتك، لقد عرفنا مكانهن، فقال: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، فوجد عليه الرسل - الملائكة - فقالوا: إن ركنك لشديد، وإنهم آتاهم عذاب غير مردود، فمسخ أحدهم أعينهم بجناحه، فطمس أبصارهم، فقالوا: سحرنا، انصرفوا بنا حتى نرجع إليه، فكان من أمرهم ما قد قص الله تعالى في القرآن، فأدخل «ميكائيل» وهو صاحب العذاب جناحه حتى بلغ أسفل الأرضين، فقلبها، فنزلت حجارة من السماء، فتتبع من لم يكن منهم في القرية حيث كانوا فأهلكهم الله، ونجى «لوطاً» وأهله إلا امرأته^(١).

تلك كانت خيانة «والهية» امرأة «لوط» ﷺ حيث كشفت سر زوجها بوجود ضيوف حسان لديه لقومه، رغم علمها بفسادهم وسوء طواياهم.

وفي رواية غير وَهْب بن منبه أن الذي قلبها «جَبْرَائِيل» ﷺ.

- حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا جابر بن نوح، قال: حدثنا الأعمش، عن مجاهد، قال: أخذ «جَبْرَائِيل» قوم «لوط» من سَرَّحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم كفأها.

- حدثنا أبو كريب مرة أخرى، عن مجاهد، فقال: أدخل «جَبْرَائِيل» جناحيه

تحت الأرض السفلى من قوم «لوط»، ثم أخذهم بالجنح الأيمن، وأخذهم من سرخهم ومواشيهم، ثم رفعها.

- حدثني المثنى، قال: حدثنا أبو حذيفة، قال: حدثنا شبل، قال: وحدثني هذا ابن أبي نجیح، عن إبراهيم بن أبي بكر، قال: ولم يسمعه ابن أبي نجیح من مجاهد، قال: فحملها على خوافي جناحيه بما فيها، ثم صعد بها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها، فكان أول ما سقط منها شرافها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر، الآية: ٧٤] ،

- حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة، قال: بلغنا أن «جبرائيل» ﷺ أخذ بعروة القرية الوسطى، ثم ألوى بها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم، ثم دمر بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعهم الحجارة، قال قتادة: وبلغنا أنهم كانوا أربعة آلاف ألف^(١). وجاء في الحديث عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم «لوط» فاقتلوا الفاعل والمفعول به»، رواه الترمذي.

وفي سورة العنكبوت، قال تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾ أَيْنَكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بَعْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [العنكبوت، الآيات: ٢٨-٣٠] ، لقد ابتدعتم هذه الفاحشة التي لم يسبقكم أحد إليها، وكل من كانوا قبلكم كانوا يتحاشون عنها لأنها مما تشمئز منه الطباع السليمة، إنكم تدعون ما أحل الله لكم نكاحه من النساء حلالاً، وتأتون الرجال من دونهن، وهو حرام عليكم، ولم يكفكم هذا الفعل الشنيع حتى رحتم تقطعون على الناس السبيل وتكلفون الغرباء والمارة تلك الفعل القبيحة بإتيانهم مكرهين، فـتـقـطـعـون بـذـلـك النسل، وتقتلون الناس، وتسلبونهم أموالهم، وفوق هذا

(١) تاريخ الطبري (١/٣٠٤، ٣٠٥).

وذاك تأتون المنكر سراً وعلانية في مجالسكم.

وذكر «الآلوسي» ﷺ في تفسير الآية: أخرج أحمد والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، والطبراني، والبيهقي في «الشَّعْب»، وغيرهم، عن أم هانئ بنت أبي طالب، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَكَايِكُمْ الْمُنْكَرَ﴾ [التنكبوت، الآية: ٢٩]، فقال: «كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون - يرمون بالحصى أو النوى - أبناء السيل ويسخرون منهم».

وعن مجاهد، ومنصور، والقاسم بن محمد، وقتادة، وابن زيد: هو إتيان الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً.

وعن مجاهد أيضاً هو لعب الحمام، وتطريف الأصابع - أي: تزيينها وصبغها - بالحناء، والصفير، والخذف، ونبد الحياء في جميع أمورهم.

وعن ابن عباس: هو تضارطهم وتصافعهم فيها.

وفي رواية أخرى عنه: هو الخذف بالحصى، والرمي بالبنادق، والفرقة، ومضغ العلك، والسواك بين الناس، وحلُّ الإزار، والسباب، والفحش في المزاح، ولم يأت في قصة «لوط» ﷺ أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى، كما جاء في قصة «إبراهيم» لأن «لوطاً» كان من قوم «إبراهيم»، وفي زمانه، وقد سبقه إلى الدعاء لعبادة الله تعالى وتوحيده^(١)، لقد ابتلى الله تعالى «لوطاً» بشر قوم، ثم أخرجه من بين ظهرانيهم، وأخذهم أخذاً وبيلاً.

ولا غَرَوَ أن تقف «والهة» في صف المعادين لزوجها «لوط» ﷺ وتكون حرباً عليه، سلماً لمن عاداه، فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدْوًا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤، ١٥] فالمعاداة بين الأزواج حاصلة وعقوق الأولاد لأبائهم لا ينكر، وقد بيّن التنزيل المبين كيف وقفت امرأة «نوح» ﷺ مع القوم الكافرين، ونسبت إليه الجنون وهو العاقل الحكيم، ولا أدل على عقله وحكمته،

(١) روح المعاني (١٥٣/٢٠).

من اصطفاه الله تعالى له لحمل رسالته، وما كان الله ليصطفى المجانين ليدعوا العقلاء إلى عبادته، لأن العقول السليمة ترفض ذلك وتأباه ولا تُسيغه، فالمجنون لا يهتدي لخير نفسه، فكيف يحمله إلى سواه؟

وكذلك تحدث التنزيل العزيز عن عقوق «كنعان بن نوح» لأبيه، ووقوفه مع من يعاديه، ورفضه لدعوته، رغم شدة حرص «نوح» ﷺ على تخليصه من ربقة الكفر، ورغبته الملحة في نجاته من الغرق مع الكفرة والمعاندين.

إن الأزواج والأولاد والأموال إن هي إلا فتنة وابتلاء يختبر بها المؤمنون للثب من صحة إيمانهم وصلابته، ومدى صبرهم واحتمالهم وقدرتهم على اجتياز مثل هذه المحنة عند تعرضهم لها، والسعيد المعيد من حاله النجاح في الامتحان، واستعان بالله العظيم أكرم مستعان.

وقد يقال: إن عداوة الأزواج والأولاد من حيث إنهم يحولون بينهم وبين الطاعات، والأمور النافعة لهم في آخرتهم، وقد يكونون سبباً في حملهم على السعي في اكتساب الحرام، وركوب مراكب الآثام لمنفعة ذاتهم، وتأمين طلباتهم، وإن كانت مرهقة، أولم تكن الحاجة ماسة إليها، أو ثمة ضرورة تحض على تأمينها.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يأتي زمان على امتي يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده، يعيرانه بالفقر، فيركب مراكب السوء فيهلك».

وربُّ قوم حملهم الحب لأزواجهم وأولادهم، والشفقة عليهم، على أن يكونوا في عيش رغيد في حياتهم أو بعد مماتهم فيكدحون ويكدون، ويقعون في المحظورات والمحاذير دون تبصر بعواقب السوء التي تنتظرهم أن تنشر الصحائف، ويحين الحساب، الآتي من غير شك ولا ارتياب.

فليحرص المؤمن على مرضاة الله، ومرضاة رسوله ﷺ، وإن سخط الناس جميعاً، ولتكن زَادَةُ التقوى فإنها خير زاد، وهي سبيل النجاة لمن يرجوها يوم المعاد.